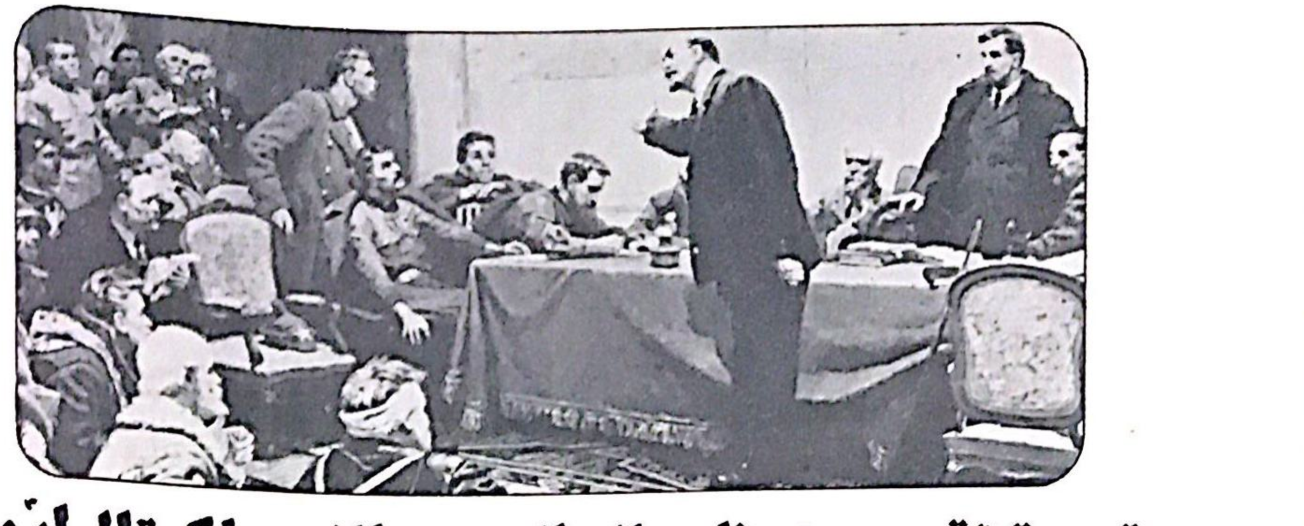

تحية تقدير وتعظيم الى الثورة الاشتراكية الرائدة في عيدها السادس والخمسين

نحتفل ، في هذه الايام ، الشعوب المحبة للحرية والتواقة الى بلوغ الحياة الاشتراكية والشيوعية التي تنعم بها شعوب الاتحاد السوفياتي اليوم . بمناسبة مرور ٥٦ عاما على قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، احتفالا يؤكد من جديد على ان الطريق (نحو الاشتراكية لا يمكن ان يكون غير الطريق الذي رسمته الماركسيه — اللينينية . والذي سلكه الاتحاد السوفياتي والبلدان الاشتراكية الشقيقة الاخرى بنجاح ظاهر) (١)

هذه الحقيقة التي يؤكدها السكرتير العام للحزب الشيوعي الفيتنامي . حقيقة الطريق الذي رسمته ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى ، للاشتراكية والشيوعية ، تتجلى اليوم باوضح وابهى مظاهرها امام كافة الانظار القادرة على الرؤية . ذلك ان الثورة التي قادها وفجرها لينين العظيم لم تكن مجرد حدث ثوري يكرر الخصائص العامة لما سبق من الثورات كما شان كافة الثورات الاشتراكية الاخرى ، وانما كانت وما تزال ثورة رائدة وقائدة بكل ما لهذه الكلمة من مضمون ومعنى .

« ان راية ثورة اوكتوبر لا تقهر » (٢) لانها جاءت تعبيرا عن نضج تام للظروف الموضوعية الروسية والعالمية . فبعد صيرورة الراسمالية القديمة راسمالية حديثة ، اي تحولها الى امبريالية تفرض استعمارها على شعوب العالم كله ، واشتداد تناحراتها للدرجة التي ادت الى نشوب الحرب العالمية الاولى فيما بينها ، والتي ايقظت شعوب المستعمرات وعلمتها على استخدام السلاح ، بعد ذلك كله اصبح قيام الثورة البروليتارية في روسيا بالذات امرا ممكنا جدا وقد توفرت لهذه الامكانية الموضوعية قيادة رائعة ذات كفاءة نادرة ، اعني بها قيادة لينين الخالد والحزب الشيوعي في روسيا كلها .

ان الحركة الشيوعية الاممية في العالم عامة وحركات التحرر الوطني في القارات الثلاث على وجه الخصوص مدينة لثورة اوكتوبر ، التي بفضلها اصبح « العالم اليوم يجتاز عصرا جديدا من الثورات والحروب ، عصرا يحتم فيه زوال الراسمالية وازدهار الاشتراكية » (٤) فلولا ثورة اوكتوبر لبقيت شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات تتخبط في متاهات التطور الراسمالي وضروب التبعية للامبريالية ، تخبطا ينهك طاقاتها ويستهلك نضالها ، استهلاكا لا يبقى له جدوى ومرتجى . وكيف يمكن ان يكون لنضال الشعوب جدوى ومرتجى بدون ان يتوفر له دليلا نظريا يهديه الى سواء السبيل ونموذجا علميا يبين له طريق التطور المناسب ؟

ان الحديث عن ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى ، حديث طويل قد لا تتسع له صفحات « الهدف » ولذلك فاننا سنحصره على خمسة موضوعات اساسية برأينا من الموضوعات التي اقترنت بلورتها على الصعيدين النظري والعملي بثورة اوكتوبر وبقائدها العظيم لينين . وهذه الموضوعات هي : التغير الذي احدثته ثورة اوكتوبر على طبيعة العصر وبالتالي على طبيعة التناقض الرئيسي على صعيد العالم كله اولا ، ونظرية لينين عن الاستعمار وعن الثورة البروليتارية في عصره ، هذه النظرية التي شكلت الاساس النظري لقيام ثورة اوكتوبر والتي على اساسها تقوم امكانية تحول الثورة الوطنية الديمقراطية الى ثورة اشتراكية ثانيا ، والجديد الذي ادخله لينين على موضوعة دكتاتورية البروليتاريا والبناء الاشتراكي ثالثا ، وقضية التعايش السلمي الذي كانت ثورة اوكتوبر تنشده وتسعى اليه رابعا .

ثورة اوكتوبر وطبيعة العصر

يقول ماوتسي تونغ : « ان الحرب الامبريالية العالمية الاولى والثورة الاشتراكية الظافرة ، ثورة اوكتوبر ، قد غيرتا اتجاه تاريخ العالم كله ، وافتتحتا عصرا جديدا » (٤) . هو عصر الانتقال من الراسمالية الى الاشتراكية على نطاق عالمي ، « عصر انتقال الثورات الوطنية الديمقراطية مباشرة الى الثورة الاشتراكية متخطية مرحلة التطور الراسمالي » (٥) ولكن لماذا الحرب العالمية الاولى وثورة اوكتوبر بالذات ؟

ان شعوب القارات الثلاث : آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية على وجه الخصوص كانت تعيش خارج التاريخ كما كانوا يطلقون عليها . وما ان بدا الراسمال المالي يغزو هذه البلدان حتى بدات تدخل حضرة التاريخ وتتفتح عيونها على الحياة البشرية ، فجاءت الحرب العالمية الاولى لتزيده نضجا ومعرفة بكيفية استعمال الاسلحة الحديثة . وقد اكتسبت الشعوب هذه الخبرة من خلال تجنيد الامبريالية لها في الحرب ، وبذلك استيقظت شعوب المستعمرات ليس فقط على معنى الحياة الجديدة بل وعلى معرفة نوايا السادة المستعمرين الذين يستغلونها ويحولون دون تقدمها نحو الحياة اللائقة بالانسان . وعندما قامت ثورة اوكتوبر لم تعط لهذه الشعوب النموذج التقدمي الذي يمكنها ان تسير على هديه في بناء حياتها الجديدة وانما اقامت الاتحاد السوفياتي الذي اعلن انه يؤيد نضال الشعوب في سبيل تحررها من الاستعمار واستقلالها وتقدمها .

« ومن المؤكد انه سيساعد اية حرب تحرير شعبي وحرب تحرر وطني قد تندلع في اي من البلدان والامم الاخرى في المستقبل ، كما انه سيساعد حتما ايه حرب تساعد على الدفاع عن السلم وان هذه الحقيقة قد ابتتها تاريخ الاتحاد السوفياتي » (٦) .

واقام بلد اوكتوبر الاممية الشيوعية الثالثة التي اخذت على عاتقها تنظيم نضال شعوب المستعمرات واشباه المستعمرات ونشر الافكار الاشتراكية التي تهديها الى طريق انتصارها على اعدائها ، بين صفوفها .

هكذا توافق قيام ثورة اوكتوبر مع ظروف الحرب العالمية الاولى توافقا غير اتجاه التطور التاريخي . ولكننا عندما نشير الى كون الحرب العالمية الاولى كانت عاملا الى جانب ثورة اكتوبر لا بد ان ناخذ بنظر الاعتبار ان اهمية الحدث الذي تحقق في اوكتوبر تفوق مرات عديدة اهمية حدث الحرب، لانه لولا قيام ثورة اوكتوبر بقيادة لينين وحزبه الشيوعي العظيم لكان يمكن ان تكون نتائج الحرب مختلفة عن النتائج التي ادت اليها ، بل ولما كان يمكن ان تكون الحرب عاملا في تغيير طبيعة العصر .

ان ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى لم تكن عاملا في تغيير طبيعة العصر فحسب ، وانما هي كانت عاملا في تغيير نتائج الحرب وجعلها عاملا في تغيير طبيعة العصر . من هنا فاننا نتفق مع الرفيق تروونغ شينه عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الفيتنامي ورئيس برلمان فيتنام الديمقراطية ، ونؤكد على صواب قوله :

« فتحت ثورة اوكتوبر الظافرة عصرا تاريخيا جديدا في حياة البشرية ، هو عصر انهيار الراسمالية وانتصار الاشتراكية على المستوى العالمي » (٧) .

وكان طبيعيا ايضا ان يغير قيام ثورة اوكتوبر الظافرة التناقض الرئيسي على صعيد عالمي ، بحكم الترابط الوثيق بين طبيعة العصر والتناقض الرئيسي على صعيد العالم كله . فقبل قيام ثورة اوكتوبر كانت التناقضات الاساسية التي تحكم العالم ثلاث هي :

« التناقض بين الطبقة العاملة وراس المال ، والتناقض بين الشعوب المقهورة والامبريالية ، والتناقض بين الامبرياليين بعضهم بعضا . ومنذ ثورة اوكتوبر برز تناقض رابع اساسي هو التناقض بين المعسكرين العالميين(٨) ، المعسكر الاشتراكي والمعسكر الراسمالي » (٩) . وقبل قيام المعسكر الاشتراكي « كان التناقض بين الراسمالية الاحتكارية والبروليتاريا محصورا في البلدان الامبريالية » (١٠) و « مع نشوء النظام الاشتراكي العالمي ، نجد ان التناقض بين الراسمالية والبروليتاريا يعبر عن نفسه ايضا وبالدرجة الاولى في التناقض بين المعسكر الاشتراكي والمعسكر الراسمالي على الصعيد العالمي كله » (١١)

ثورة اوكتوبر ودكتاتورية البروليتاريا

منذ اوائل هذا القرن ولينين يتابع باستمرار ظاهرة تحول الراسمالية الى امبريالية ، وقد اكتشف قانون التطور المتفاوت في المجالين السياسي والاقتصادي في البلدان الاستعمارية ، ومن هذا الاكتشاف صاغ « نظرية جديدة للثورة الاشتراكية ، كان ماركس وانجلز قد اعتبرا ان شرط انتصار الثورة البروليتارية هو اندلاعها في آن واحد في كل البلدان الراسمالية المتقدمة ، او على الاقل في معظمها، وان الثورة البروليتارية مهددة بالفشل الاكيد اذا ما اقتصر قيامها على بلد واحد فقط . وكان هذا الاستنتاج الذي توصل اليه ماركس وانجلز ملائما للراسمالية قبل بلوغها المرحلة الامبريالية ، الا انه لم يعد صحيحا مع دخول الراسمالية هذه المرحلة الجديدة » (١٢) التي اصبح الاستعمار خلالها نظاما عالميا ، يفرض سلطانه على شعوب المستعمرات ويستغلها لصالح حفنة من ابلدان الراسمالية المتقدمة الامر الذي يجعل التناقضات بين البلدان الاستعمارية تظهر على صعيد العالم كله ويشتد الصراع بينها بسبب السباق فيما بينها من اجل السيطرة على المستعمرات من جهة ، ويتيح هذا الوضع نفسه الفرصة للبروليتاريا لان تستفيد من هذه الحالة وتلحق الهزيمة بالاستعماريين ، استفادة لا تفترض الانتظار حتى قيام الثورة في اضعف حلقات السلسلة الاستعمارية في الحلقة التي تتكشف فيها تناقضات المستعمرين ، لان تفاوت التطور الاقتصادي والسياسي بين البلدان الراسمالية من شانه ان يوجد ظروفا متفاوتة لامكانية قيام الثورة في هذا البلد الاستعماري او ذاك .

ولكن نظرية امكانية احداث الثورة البروليتارية في بلد واحد ، التي استنتجها لينين من اكتشافه لقانون التطور المتفاوت بين البلدان الراسمالية الذي هو قانون مطلق ، قد قادته لان يشدد على قضية التحالف مع الفلاحين لدرجة جعلته يحدث تغيرا اساسيا في مضمون نظرية دكتاتورية البروليتاريا التي وضعها ماركس وانجلز ، لان العمال يشكلون اقلية ولا يصح لهم القيام بالثورة لمصلحتهم فقط ما داموا اقلية . فما يميز الثورة البروليتارية هو كونها ثورة تقوم بها الاكثرية الساحقة في سبيل مصلحة الاكثرية الساحقة » (١٣) بعكس حركات الطبقات الاخرى ، فهي حركات اقلية تقوم لصالح الاقلية .

من هنا كان تشديد لينين على التحالف مع الفلاحين واعتبارهم قوى اساسية في احداث الثورة وفي انجاز مهماتها بحكم كونهم يشكلون الاغلبية في الثورة الجديدة ، التي هي ثورة وطنية ديمقراطية تحكمها دكتاتورية مركبة او مشتركة هي دكتاتورية العمال والفلاحين الديمقراطية الثورية التي تعبر عن ارادة غالبية السكان وتمثل مصلحتهم . وهي سلطة لا تقوم بتحطيم الطبقات الرجعية فقط وانما تقوم ايضا بتعبئة الجماهير الكادحة وتنظيمها لتشارك في بناء المجتمع الجديد .

ثورة اوكتوبر والثورة الوطنية الديمقراطية

لقد اصبحت الثورة الوطنية الديمقراطية ثورة جديدة ، تخضع لقيادة البروليتاريا وتعد جزءا من الثورة الاشتراكية العالمية ولم تعد جزءا من الثورة البرجوازية العالمية . وقد تحقق هذا الامر بحدوث الحرب العالمية الاولى وقيام ثورة اوكتوبر الاشتراكية العظمى . وقد وضع لينين نظرية امكانية تحول الثورة الديمقراطية الى ثورة اشتراكية اذا ما توفرت لها قيادة الطبقة العاملة ، بالاستناد الى دراسته لظاهرة تحول الراسمالية الى امبريالية واكتشافه لقانون التطور المتفاوت في البلدان الراسمالية اذ تتجاوز البرجوازية المحلية الى الاستعمار وتتخلى عن القيام بمهمة بناء مجتمعها الصناعي المتقدم ، بعد ان تتحالف مع الاقطاعيين والاستعماريين ، الامر الذي يجعل من الطبقة العاملة مرشحة للقيام بالثورة البرجوازية الديمقراطية ، وبذلك تتغير مصلحة هذه الثورة فلا تعود كلها مسالة بناء النظام الراسمالي وانما تهم بايجاد الاساس المادي والتكنيكي للشروع في ثورتها الاشتراكية . وبذلك تصبح الاشتراكية هي الاتجاه الحتمي لهذه الثورة .

ثورة اوكتوبر والتعايش السلمي

« ان سياسة التعايش السلمي بين البلد الاشتراكي والبلدان الراسمالية قد اصبحت الاتجاه الرئيسي، الخطة العامة لسياسة الدولة السوفياتية في الحقل الخارجي منذ اول يوم وجودها » (١٤) .

ان قضية التعايش السلمي بين الانظمة الاجتماعية المختلفة ، ترتبط بنظرية التطور المتفاوت بين البلدان الراسمالية وامكانية حدوث الثورة في بلد واحد . ذلك لان لينين عندما وضع نظريته التي خالف بها نظرية ماركس وانجلز لم يكن يغفل او يجهل الحيثيات التي كان معلما الطبقة العاملة ورائدا ايديولوجيتها وقائدا حركتها السياسية ، يشيران اليها حيث ربطا شرط انتصار الثوره البروليتاريه ان تحدث في جميع ابلدان الراسمالية المتقدمه او في معظمها لانهما اولا كانا يلاحظان اتساق التطور وتكراره بدرجة جعلت ماركس يقول في مقدمة لكتابه الشهير راس المال :

« انني ادرس في هذا المؤلف اسلوب الانتاج الراسمالي ، وعلاقات الانتاج والتبادل المطابقة لها . وانكلترا هي المكان التقليدي لهذا الانتاج . لهذا السبب استعير من هذه البلاد الاحداث والامثلة الاساسية المستخدمة بمثابة صور توضح تطور نظرياتي ، فاذا كان القارىء الالماني يسمح لنفسه بهزة منكبين فرنسية في موضوع حالة العمال الانكليز الصناعيين والزراعيين ، او يهدد نفسه بفكرة متفائلة بان الاشياء لا تصل الى هذا الحد في المانيا ، ارى نفسي مضطرا لان اصرخ بوجهه : هذه القصة هي قصتك انت !

والامر لا يتعلق هنا بالنمو ، الكامل تقريبا ، للمنازعات الاجتماعية التي تولدها القوانين الطبيعية للانتاج الراسمالي ، ولكنه يتعلق بهذه القوانين نفسها وبالاتجاهات التي تظهر **وتتحقق بحتمية فولاذية . ان البلد الاكثر تطورا في الصناعة من شانه ان يبين لتلك البلاد التي تتبعه على صعيد الصناعة ، صورة مستقبلها الخاص » (١٥)**

والان ، فان قصة العامل الانكليزي هي قصة العامل الالماني في آن واحد وان القوانين الطبيعية للانتاج الراسمالي تظهر اتجاهاتها وتتحقق بحتمية فولاذية ، وان البلد الاكثر تطورا في الصناعة يرسم للبلدان التي تسير بطريق التطور الراسمالي صورة مستقبله الصناعي المتقدم . ولانهما ثانيا كانا يعدران بان حدوث الثورة في بلد واحد من شانه ان يؤلب البلدان الاخرى عليها ويجهضها دون ان تستطيع بروليتاريا البلدان الاخرى حمايتها وقد عاش ماركس وانجلز قيام وسقوط اول ثورة بروليتارية في التاريخ نعني : كومونة باريس . ولكن لينين لاحظ بان الظروف قد اختلفت وان امكانية قيام الثورة في بلد واحد قد اصبحت ممكنة ، بيد انه لم يغب ولم يجهل او يتجاهل صعوبة الظروف التي ستعيشها الثورة الاشتراكية الوحيدة وسط عالم راسمالي استعماري رجعي ولذلك كانت مسالة التعايش السلمي مع البلدان الراسمالية شغله الشاغل وكان يعتبرها القضية الاولى في سياسة الاتحاد السوفياتي ، فهو يعرض برنامجا للتعايش معتمدا على حاجة البلدان الراسمالية الى المواد الخام الموجودة في الاتحاد السوفياتي : « اننا ننتقل الى ميدان الاقتصاد ونعرض برنامجا ايجابيا للبناء امام العالم باسره » (١٦) .

و « نقول لارباب العمل : انتم لا تصلحون لشيء ايها السادة الراسماليون ، وبينا يحل بكم الخراب ، نبني نحن على طريقتنا، افلم يحن الحين ايها السادة ، لهذا السبب ، لكي تتفقوا معنا . وهذا ما يجب على جميع راسماليي العالم كله ان يجيبوا عنه ، حتى وهم يحكون اقفيتهم : لعله حان الحين ، فتعالوا نوقع معاهدة تجارية » (١٧) .

وقد كانت قضية العلاقات الاقتصادية مع البلدان الراسمالية قضية القضايا التي شغلت شعوب الاتحاد السوفياتي كله في السنوات الاولى لقيام ثورة اوكتوبر ولينين يؤكد على ان هذه العلاقات حتمية : « ان البلدان البرجوازية بحاجة الى المتاجرة مع روسيا : فهي تعرف ان الدهور عندها سيسير الى ابعد مما سار حتى اليوم اذا لم تقم هذه او تلك من اشكال العلاقات الاقتصادية المتبادلة » (١٨) . وفي تقريره السياسي امام اللجنة المركزية للمؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي (البلشفي) الروسي في ١٩٢٢/٣/٢٧ ، يقول لينين : « يمكن في هذا الاجتماع القول بثقة كافية ان تطور العلاقات التجاريه المنظمة بين الجمهورية السوفياتية وكل العالم الراسمالي الباقي سيسير الى ابعد حتما » (١٩) . « انني لا ارى اي اسباب تمنع دولة اشتراكية كدولتنا ان تكون لها علاقات اعمال غير محدودة مع البلدان الراسماليه » (٢٠) .

يمكننا ان نستطرد كثيرا للتاكيد بان مساله العلاقات الاقتصادية وبالتالي مساله التعايش السلمي كانت موضع مناقشة ومتابعة واهتمام لدى كل الدولة وكل الحزب وكل شعوب الاتحاد السوفياتي . وقد اعتبرت هي الاساس لفك الحصار عن الدولة السوفياتية وبناء الاقتصاد السوفياتي والحياة السوفياتية الجديدة .

ان سياسة التعايش السلمي السوفياتيه لا تعني بحال من الاحوال انها بديلا للمبادىء اللينينية التي تؤكد على دعم حركات التحرر ومناهضة السياسة الامبريالية لصالح الشعوب ونضالها العادل في سبيل تحررها واستقلالها وتقدمها .

لقد فرضوا الحصار على ثورة اوكتوبر وشنوا الحرب الاهلية عليها ، ولكنها فكت حصارهم وفرضت عليهم اقامة العلاقات معها ، ولعبت دورا حاسما في دحر الفاشية والنازية في الحرب العالمية الثانية . وها هم الامبرياليون اليوم يتهافتون على الاتحاد السوفياتي طالبين اقامة العلاقات التجارية . وقد تنبا لينين بما تم في هذه الايام حين قال :

(نحن في روسيا نملك القمح والكتان والبلاتين والبوطاس وكثرة من المطمورات النافعه التي يحتاج اليها العالم كله امس الحاجة . وفي اخر المطاف ، سيترتب على العالم ان ياتي الينا سعيا وراء هذه الاشياء ، بصرف النظر عما اذا كانت لدينا البولشفية ام لا . وهناك علائم تدل على انهم يقتربون تدريجيا من فهم هذه الحقيقة (٢١) .

ان المرحلة الجديدة التي يمكن تسميتها مرحلة **التعايش السلمي** بين النظامين الاجتماعيين المختلفين والمتناقضين : النظام الاشتراكي والنظام الراسمالي ، هي وليدة تطورات ايجابية لصالح الاشتراكية . وبحكم هذه التطورات وتفاقم ازمة النظام الراسمالي فان الولايات المتحدة الاميركية التي تتزعم الامبريالية العالمية اليوم قد وجدت نفسها مضطرة لان تتقبل سياسة التعايش السلمي والتبادل التجاري مع البلدان الاشتراكية على النطاق الواسع الذي عبرت عنه الاتفاقيات الاخيرة . وما دامت الامبريالية هي الاضعف فان حركات التحرر الوطني تستطيع ان تصعد من نضالها مستفيدة من دعم البلدان الاشتراكية لها من جهة ومن ضعف الامبريالية من جهة اخرى .

ولقد اكد الاتحاد السوفياتي انه مع الشعوب في نضالها ضد الامبريالية وحربها العادلة وهو مع الشعوب ايضا في طلبها للسلام ونضالها من اجله .

بقلم هاشم علي محسن

هوامش

(١) لي دوان — اللينينيه والثوره الفيتنامية ص٢٥
(٢) ماوتسي تونغ المختارات م٣ ص ١٤٧
(٣) ماوتسي تونغ المختارات م٢ ص ٤٩٥
(٤) المصدر السابق ص٤٧٩ . (٥) لي دوان — الثورة الفيتنامية المشاكل الرئيسية والمهمات الرئيسية ص١٥ .
(٦) ماوتسي تونغ المختارات م٢ ص ٢٨٣
(٧) على خطى كارل ماركس ص ٢٣ .
(٨) يقصد النظامين الاجتماعيين : الاشتراكي والراسمالي لانه بقيام ثورة اكتوبر لم يقم معسكر اشتراكي وانما قام نظام اشتراكي وبعد الحرب العالمية الثانية قام المعسكر الاشتراكي
(٩) راجع الهامش رقم (٥) ص ٢٥ . (١٠) راجع الهامش (١) ص ٤٣ (١١) المصدر السابق .
(١٢) اللينينية والثورة الفيتنامية ص ٨
(١٣) البيان الشيوعي — المختارات المجلد واحد ص ٦٥ .
(١٤) لينين — في التعايش السلمي ص ٥ .
(١٥) كارل ماركس — راس المال ترجمة محمد عيتاني ص ٧ .
(١٦) لينين — في التعايش السلمي — ص ٨٠ .
(١٧) المصدر السابق ص٨٠ — ٨١ . (١٨) المصدر السابق ص ١٤٥
(١٩) المصدر السابق ص ١٥٣ . (٢٠) المصدر السابق ص ٦٩
(٢١) المصدر السابق ص ٧٠ .